﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾ [المُزّمّل: 1 - 4]

❁ مناسبة مطلع السّورة لخاتمة سابقتها:

إطلاع النبيّ ﷺ على الغيب، وتحمّله عبء الدّعوة، مصونانِ بقيامة المزّمّل

قال الإمام البقاعي: "لمّا تقدّم في آخر الجنّ من تعظيم الوحي، وأنّ من تعظيمه حفظَ المرسَل به من جميع الآفات المُفتَرَة عن إبلاغه بما له سبحانه من إحاطة العلم والقدرة، ونَدَبَ نَبيَّهُ الذي ارتقاه لرسالته والاطلاع على ما أراده من غيبه ﷺ أوّل هذه (السورة) إلى القيام بأعباء النبوة بالمُناجاة بهذا الوحي في وقت الأُنس والخُلوة بالأحباب، والبسط والجلوة لمن دقَّ الباب، للاعتلاء والمتاب، المهيِّىء لحمل أعباء الرسالة، والمقوّي على أثقال المعالجة لأهل الضلالة، فقال معبِّرًا بالأداة الصالحة للقرب والبعد، المختَصّة بأنه لا يقال بعدها إلا الأمور التي هي في غاية العظمة، أشار إلى أنه ﷺ يراد به غاية القرب بالأمور البعيدة عن تناول الخَلْق بكونها خوارقَ للعادات ونواقضَ للمألوفات المطردات"(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾: (زمل): أصلٌ يدلُّ على حَمْلِ ثقلٍ مِنَ الأثقالِ، ومِنْ ذلكَ: الزّاملةُ، وهي بعيرٌ يُحمَلُ عليهِ المتاعُ(2)، والزُّمَّيْلُ: الجبانُ الضَّعيفُ(3)، وزمَّلَهُ في ثوبِهِ، أي: لفَّهُ، وتزمَّلَ بثيابِهِ: تدثَّرَ(4)، والتفَّ بها، وهو المرادُ هنا على الرّاجحِ(5)، والأزْمَلُ: الصَّوْتُ، عَن الأصْمَعيِّ، وقيلَ: الأزْمَلُ: كُلُّ صَوْتٍ مُخْتَلِطٍ، والأزْمَلَةُ: رَنينُ القَوسِ، الإزْمَوْلَةُ:

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 21/ 2.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زمل).
(3) الأصفهاني، المفردات: (زمل).
(4) الجوهري، الصحاح: (زمل).
(5) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 676.

المُصَوِّتُ مِنَ الوُعولِ[1]، فلعلَّه بذلك يكون بين (حملَ وزملَ) اشتقاق في الميم واللّام، والحمل معنى عامٌّ في بابه، وفي زمل معنى يزيدُ على الحَمْلِ، وهو الصَّوت.

2) ﴿قُمِ﴾: (قوم): أصلٌ يدلُّ على عَزْمٍ أو انتصابٍ[2]، ومنهُ قولُهم: قامَ قيامًا، والقَوْمةُ: المَرَّةُ الواحدةُ؛ إذا انتصبَ[3]، والقيامُ والقِوامُ: اسمٌ لِما يقومُ بهِ الشَّيءُ، أي: يَثْبُتُ، والاستقامةُ تقالُ في الطَّريقِ الَّذي يكونُ على خطٍّ مُسْتَوٍ، والإقامةُ في المكانِ: الثَّباتُ[4]، والمرادُ بقيامِ اللَّيلِ هنا: الصَّلاةُ فيهِ مجازًا مُرسَلًا.

3) ﴿أَوِ ٱنقُصْ﴾: (نقص): أصلٌ يدلُّ على ضِدِّ الزّيادةِ[5]، ومِنْ ذلكَ: النُّقصانُ، وهو الخُسرانُ في الحظِّ[6]، والنَّقيصةُ: العيبُ، يُقالُ: ما بهِ نقيصةٌ، أيْ: شيءٌ يُعابُ بهِ[7]، والمُرادُ هنا: خلافُ الزّيادةِ، وقالَ ابنُ القَطّاع: النَّقْصُ في الشَّيْءِ: ذَهابُ شَيْءٍ مِنْهُ بَعْدَ تَمامِه، كالتَّنْقاصِ، والنُّقْصانُ أيضًا: اسمٌ للقَدْرِ الذّاهِبِ من المَنْقوصِ، يُقال: دَخَلَ عَلَيْهِ نَقْصٌ في دينِه وعَقْلِه، ولا يُقالُ: نُقْصانٌ؛ وذلِكَ لأنَّ النَّقْصَ هوَ الضَّعْفُ، وأمّا النُّقْصانُ؛ فَهوَ ذَهابٌ بعد التَّمام[8].

4) ﴿وَرَتِّلِ﴾: (رتل): أصلٌ يدلُّ على اتِّساقِ الشَّيءِ وانتظامِهِ على استقامةٍ، يقالُ: رجلٌ رَتِلُ الأسنانِ، ومُرَتَّلٌ: مُفَلَّجٌ، ورَتَّلْتُ الكلامَ تَرتيلًا؛ إذا أمهَلْتُ فيه، وأحسَنْتُ تأليفَه، وهو يَتَرَتَّل في كلامِه، ويترسَّلُ؛ إذا فَصَلَ بعضَه من بعض[9]، والتَّرتيلُ: إرسالُ الكلمةِ مِنَ الفمِ بسهولةٍ واستقامةٍ[10] بحيثُ تكونُ ظاهرةً بيِّنةً حسَنةً[11]، والمرادُ هنا: لا تَعجَلْ بقراءةِ القرآنِ، بل اقرأْهُ في مَهَلٍ وبيانٍ مع تدبُّرٍ للمعاني[12].

(1) الزبيدي، تاج العروس: (زمل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (قوم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(4) الأصفهاني، المفردات: (قوم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقص).
(6) الأصفهاني، المفردات: (نقص).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقص).
(8) الزبيدي، تاج العروس: (نقص).
(9) الخليل، العين: 8/ 113.
(10) الأصفهاني، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (رتل).
(11) الجوهري، الصحاح، والزمخشري، أساس البلاغة: (رتل).
(12) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 37.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قيامُ اللَّيلِ وتلاوةُ القرآنِ عونٌ للعابدِ

يخاطبُ اللهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ، فيقولُ: يا أيُّها المُلتفُّ بثيابِهِ، قُمْ للصَّلاةِ في اللَّيلِ كلِّهِ إلّا قليلًا منهُ، هو نصفُهُ، أو انقُصْ مِنَ النِّصفِ قليلًا، أو زِدْ على النِّصفِ، فأنتَ مخيَّرٌ بينَ هذهِ الثَّلاثةِ، واقرأِ القرآنَ بتمهُّلٍ وتُؤَدةٍ؛ بحيثُ تُبيِّنُ حروفَهُ، فإنَّ ذلكَ يكونُ عونًا لكَ على فهمِ القرآنِ وتدبُّرِهِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ افتتاحِ السّورةِ بالنِّداءِ:

عظمةُ شأنِ الكلامِ الواردِ بعدَ النِّداءِ

افتتاحُ السّورةِ بالنِّداءِ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾، مع أنَّ المخاطَبَ الَّذي هو النَّبيُّ ﷺ واحدٌ غيرُ بعيدٍ؛ للاعتناءِ بما سيُلقَى إليهِ مِنَ الكلامِ[2]، وبيانِ أنَّهُ في غايةِ العظمةِ[3].

عِلَّة إيثارِ (يا) دونَ غيرِها:

بُعدُ الوحيِ الكريمِ عن تناولِ البشرِ

عُبِّرَ بأداةِ نداءِ البعيدِ: (يا) في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾؛ لزيادةِ تنبيهِ النَّبيِّ ﷺ؛ لِما سيُتلَى عليهِ مِنَ الكلامِ العظيمِ الشَّأنِ، البعيدِ عن تناولِ البشرِ[4]، ولذلكَ اقترنَتْ: (يا) بـ (ها) التَّنبيهِ، وأتى النظمُ بـ(أي) وصلةً للنِّداءِ؛ حتّى يُرتكَزَ عليها من أجلِ نداءِ المعرَّفِ بـ(أل)، وفيه تعظيمٌ للمُنادى وتشريفٌ لمَكانتِهِ حتّى إنَّه لا يُنادى إلّا بواسطةٍ.

سرُّ النِّداءِ بوصفِهِ ﷺ بـ ﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾:

أجمِلْ بالإيناسِ في ساعةِ الخوفِ والوحشةِ!

الأصلُ في النِّداءِ أنْ يكونَ باسمِ المنادَى (العلَمِ)؛ إذا كانَ معروفًا عندَ المتكلِّمِ؛ فلا يُعدَلُ عن الاسمِ العلَمِ إلى غيرِهِ مِنْ وصفٍ أو إضافةٍ إلّا لغرضٍ يقصدُهُ البُلَغاءُ مِن تعظيمٍ وتكريمٍ، نحوُ: (يا أيُّها النَّبيُّ)،

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 676 - 680، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 249 - 250.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 255.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 2.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 2.

أو تلطُّفٍ وتقرُّبٍ، نحوُ: (يا بُنَيَّ)، و: (يا أبَتِ)، أو قصدِ تهكُّمٍ، نحوُ: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [الحجر: 6]، فإذا نوديَ المنادَى بوصفِ هيئتِهِ مِنْ لِبْسةٍ أو جِلْسةٍ أو نحوِ ذلكَ؛ كانَ المقصودُ في الغالبِ التَّلطُّفَ بهِ، والتَّحبُّبَ إليهِ ولهيئتِهِ، فنداءُ النَّبيِّ هنا بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ نداءُ تلطُّفٍ ورِفقٍ؛ لأنَّهُ باعتبارِ ما كانَ عليهِ مِنْ هيئةِ التَّدثُّرِ بالثِّيابِ، فقد قال: "زمِّلوني زمِّلوني"، عندما رجَعَ مِن غارِ حِراء، وبوادرُه ترعدُ[1]، وكانَ خطابُهُ ﷺ بهذا الخطابِ في أوَّلِ نزولِ الوحيِ، ثمَّ بعدَ ذلكَ خوطبَ بالنُّبوَّةِ والرِّسالةِ[2].

دلالةُ ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ بينَ الحقيقةِ والمجازِ:

التكليفُ بالرِّسالةِ مسؤولية كبيرةٌ لا تعدلها مسؤوليَّة

الظّاهرُ أنَّ وصفَ المُزَّمِّلِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾: محمولٌ على حقيقتِهِ؛ باعتبارِ أنَّهُ ﷺ لمّا جاءَهُ المَلَكُ في غارِ حراءٍ، وحاورَهُ بما حاورَهُ بهِ؛ رجَعَ إلى خديجةَ رضي الله عنها، فزمَّلوهُ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المعنى: يا أيُّها المُزَّمِّلُ للنُّبوَّةِ وأعبائِها، أي: المُشمِّرُ المُجِدُّ، فعلى هذا يكونُ التَّزمُّلُ مجازًا[3]، مِنْ: تزمَّلَ الزَّمْلَ؛ إذا تحمَّلَ الحِمْلَ؛ ففيهِ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ شُبِّهَ إجراءُ التَّبليغِ بتحمُّلِ الحِمْلِ الثَّقيلِ، بجامعِ المشقَّةِ[4]، وفي ذلكَ تبشيرُه ﷺ بأنَّه أهلٌ لأن يَتَحَمَّلَ الرِّسالةَ وما يَتْبعُها مِن همومٍ ومتاعبَ.

دلالة صيغة التَّفعُّل في ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾:

الإبلاغُ في تأنيسِه أو في تبشيرِه ﷺ

التَّزمُّلُ في قولِهِ ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ مشتقٌّ مِنَ الزَّمْلِ، ولا يُعرَفُ لـ: (تزمَّلَ) فعلٌ مجرَّدٌ في معناهُ، فهو مِنَ التَّفعُّلِ الَّذي تُنوسيَ منهُ معنى التَّكلُّفِ للفعلِ، وأُريدَ في إطلاقِهِ معنى شدَّةِ التَّلبُّسِ، وكَثُرَ مِثلُ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 33، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 311، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 417، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 255 - 256.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 378.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 33، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 311.

(4) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 340.

هذا في الاشتمالِ على اللِّباسِ، فمنهُ التَّزمُّلُ، ومنهُ التَّعمُّمُ، والتَّأزُّرُ، والتَّقمُّصُ[1]، وفي هذا على حَمْلِ التَّزمُّلِ على الحقيقةِ إبلاغٌ في مُلاطَفة الرَّسولِ وتأنيسِه، على أنْ يكونَ قد تزمَّلَ بهذهِ الصِّفةِ، وإشارةٌ بإدغام تاءِ التَّفعُّل "إلى أنَّ السِّتر بالثَّوب لم يعُمَّ جميعَ البدن"[2].

وعلى المعنَى المَجازيِّ يكونُ في إدغامِها إشارةٌ "إلى البِشارةِ بالقوَّةِ على حَمْلِ أعباءِ ما يُرادُ به"[3]، وإذا كانت هذه البشارةُ مُستفادةً مِن ذاتِ المعنَى المجازيِّ؛ كانَ في إدغامِ (التَّاءِ) إبلاغٌ في تقريرِها.

دلالةُ الأمرِ ﴿قُمِ﴾:

إيجابُ القيامِ على النَّبيِّ فيهِ تقويةٌ لاستعدادِهِ لتلقّي الوحيِ

الظّاهرُ أنَّ الأمرَ في قولِهِ تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾؛ للوجوبِ، وهو خاصٌّ بهِ ﷺ؛ لأنَّ الخطابَ موجَّهٌ إليهِ وحدَهُ، وحكمةُ هذا القيامِ الَّذي فُرِضَ على الرَّسولِ ﷺ في صدرِ رسالتِهِ: أنْ تَزْدادَ بهِ سريرتُهُ زَكاءً يُقوّي استعدادَهُ لتلقّي الوحيِ، وقد استمرَّ وجوبُ قيامِ اللَّيلِ على رسولِ اللّهِ ﷺ بعدَ فرضِ الصَّلواتِ الخمسِ؛ تعظيمًا لشأنِهِ بكثرةِ الإقبالِ على مناجاةِ ربِّهِ في وقتِ فراغِهِ مِنْ تبليغِ الوحيِ، وتدبيرِ شؤونِ المسلمينَ وهو وقتُ اللَّيلِ، وأمّا قيامُ اللَّيلِ للمسلمينَ؛ فهُم اقتدَوا فيهِ بالرَّسولِ ﷺ، وهو يُقرُّهم على ذلكَ، فكانوا يرونَهُ واجبًا عليهم، وقد أثنَى اللّهُ عليهم بذلكَ في آياتٍ كثيرةٍ، ثمَّ رُفِعَ فرضُ القيامِ عنهم[4]، ويُحمَلُ على هذا الوجوبِ أيضًا الأمرُ بالنَّقصِ أو الزِّيادةِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾.

علَّةُ التَّعبيرِ بالقيامِ دون غيرِه:

لا يقومُ اللَّيلَ إلّا مَنْ كانت له عزيمةٌ قويَّةٌ

عُبِّرَ بالقيامِ في قولِهِ ﷻ: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾؛ لدلالتِهِ على العزمِ والانتصابِ؛ لقيامِ اللَّيلِ، والمعنى: (قُمْ إلى الصَّلاةِ في اللَّيلِ)،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 256.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 203.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 203.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 386 - 387، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 258 - 259.

فالقيامُ على هذا حقيقيٌّ، ويَحتملُ أنْ يكونَ إطلاقُ القيامِ مِنْ قبيلِ إطلاقِ الجزءِ وإرادةِ الكلِّ[1]، فيكونَ الفعلُ منزَّلًا منزلةَ اللّازمِ، فلا يحتاجُ إلى تقديرِ متعلِّقٍ، والمعنى: صلِّ في اللَّيلِ[2]، وخُصوصُ القيامِ ناظِرٌ إلى عِظَمِ الغرضِ مِن الصَّلاةِ في اللَّيلِ.

دلالة التَّعريف في ﴿ٱلَّيۡلَ﴾:

سَعَةُ الشَّيءِ تُلْهِمُ النَّيْلَ منهُ بكثرةٍ

تعريفُ اللَّيلِ بـ(أل) في قولِهِ تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾؛ للجنسِ الصّادقِ على جميعِ أجزائِهِ إلّا ما استُثنيَ، والمعنى: إلّا قليلًا مِنْ أجزاءِ اللَّيلِ[3]، وهذا هو الظَّاهرُ، والعمومُ في: ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ يُنبِّه على استثمارِه بالتَّوسُّعِ في الصَّلاةِ فيه، فإنَّ أجزاءَه كثيرةٌ، وهو يتكرَّرُ عَقِبَ كلِّ نهارٍ، ويَحتملُ أنْ يكونَ للجنسِ الصّادقِ على جميعِ اللَّيالي، والمعنى: إلّا قليلًا مِنَ اللَّيالي، وهي اللَّيالي الَّتي يكونُ فيها عذرٌ يمنعُ مِنْ قيامِها، أي: هو استثناءٌ مِنَ اللَّيالي؛ باعتبارِ جزئيّاتِها، لا باعتبارِ الأجزاءِ[4]، وهذا خلافُ الظَّاهرِ.

سرُّ تخصيصِ اللَّيلِ بالأمرِ بالقيامِ فيهِ:

يسكنُ اللَّيلُ، فيَصُفُّ العبد قدميه قائمًا لله

تخصيصُ اللَّيلِ في قولِهِ تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ بالأمرِ بالصَّلاةِ فيهِ؛ لأنَّهُ وقتُ النَّومِ عادةً، فأُمِرَ الرَّسولُ ﷺ بالقيامِ فيهِ؛ زيادةً في إشغالِ أوقاتِهِ بالإقبالِ على مناجاةِ اللهِ تعالى، ولأنَّ اللَّيلَ وقتُ سكونِ الأصواتِ واشتغالِ النّاسِ، فتكونُ نفسُ القائمِ فيهِ أقوى استعدادًا لتلقّي الفيضِ الرَّبّانيِّ[5].

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 35، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 49، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 378.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 257.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 312، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 3 - 4، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 259.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 387، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 259.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 4، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 259.

غرضُ الاستثناءِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾:

لـلـبَـدَنِ حـقٌّ مـعـلـومٌ في الرّاحةِ ولو كان البدنُ لنبيٍّ

لمّا كانَ للبدنِ حظٌّ في الرّاحةِ؛ قالَ تعالى مستثنيًا مِنَ اللَّيلِ: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: مِنْ كلِّ ليلةٍ[1]، أي: صلِّ اللَّيلَ كلَّهُ إلّا يسيرًا منهُ؛ لأنَّ قيامَ جميعِهِ على الدَّوامِ غيرُ ممكنٍ[2]، فلم يتعلَّقْ إيجابُ القيامِ عليهِ بأوقاتِ اللَّيلِ كلِّها[3]، ويَحْتمِلُ أنْ يكونَ استثناءً مِنَ القيامِ، فيكونَ المستثنَى هو اللَّيالي الَّتي لا يستطيعُ القيامَ فيها؛ لعذرٍ مِنَ الأعذارِ[4]، ومآلُ المعنَى واحدٌ، فالأوْلى الحَمْلُ على الظَّاهرِ الَّذي هوَ الوجهُ الأوَّلُ.

سِرُّ التَّنكيرِ ﴿قَلِيلًا﴾:

قِلَّةُ تَرْكِ القيامِ بـالـلَّـيـلِ شـأنُ الأكابرِ الكُمَّلِ

جاء تنكيرُ ﴿قَلِيلًا﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: للتَّقليلِ؛ إبلاغًا في الإشارةِ إلى التَّوسُّعِ في الصَّلاةِ في اللَّيلِ؛ فإنَّها خيرُ مُعينٍ على تحمُّلِ أعباءِ الرِّسالةِ خصوصًا ومشاقِّ الحياةِ عمومًا بالنَّهارِ، والجزءُ القليلُ مِن اللَّيلِ، الَّذي لا يكونُ فيه قيامٌ يُباشِرُ فيه الرَّسولُ النَّوْمَ أو حاجةً لهُ، بقي أنَّ المستثنى دلَّ على موصوفٍ محذوفٍ إيجازًا تقديرُهُ: (إلّا جزءًا قليلًا)، والغرضُ من الحذفِ التركيزُ على القلَّةِ دونَ الجزءِ مِنَ اللَّيلِ.

بلاغةُ الموقعِ الإعرابيِّ لـ ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾:

القليلُ المستثنَى هو نصفُ اللَّيلِ

الظّاهرُ أنَّ قولَه: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدلٌ مِنْ قولِه: ﴿قَلِيلًا﴾ بدلًا مطابقًا، وهو تبيينٌ لإجمالِهِ، معَ تقريرٍ وتوكيدٍ لقيامِ اللَّيلِ، فيكونُ القليلُ هنا النِّصفَ، أو أقلَّ منهُ بقليلٍ، وفائدةُ هذا الإجمالِ: الإيماءُ إلى أنَّ الأوْلى أن يكونَ القيامُ أكثرَ مِن مدَّةِ نصفِ اللَّيلِ، وأنَّ جعْلَهُ نصفَ اللَّيلِ رحمةٌ ورخصةٌ للنَّبيِّ ﷺ، ويدلُّ لذلكَ تعقيبُهُ بقولِهِ: ﴿أَوِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 4، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 49.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 35.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 259.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 387.

﴿ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾، أي: انقُص مِنَ النِّصفِ قليلًا، فيكونُ زمنُ قيامِ اللَّيلِ أقلَّ مِنْ نصفِهِ، وهو حينئذٍ قليلٌ، فهو رخصةٌ في الرُّخْصَةِ[1]، ويحتملُ أنْ يكونَ ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدلًا من ﴿ٱلَّيۡلَ﴾، فيكونَ المأمورُ به قيامَ نصفِ اللَّيل بعد الأمرِ بقيامِ اللَّيل إلّا قليلًا منهُ.

دلالة العطفِ ﴿أَوِ ٱنقُصۡ﴾:

لمّا كانتِ الهِمَمُ مختلفةً بالنِّسبةِ إلى الأشخاصِ، وبالنِّسبةِ إلى الأوقاتِ؛ قيلَ: ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾، أي: مِنْ هذا النِّصفِ الَّذي أُمِرَتْ بقيامِهِ، أو مِن النِّصْفِ المُستثنَى منهُ القليلُ على الوجهِ الثَّاني[2]، وتتجلَّى في هذا رحمةُ اللّه، مع عظيمِ ترغيبِه في تلك العبادةِ الشَّريفةِ، فالغرضُ من العطف على البدلِ تقريرُ المبدلِ منهُ، وتحديدُ مدَّةِ الاستثناء.

هِمَمُ النّاسِ في قيامِ اللَّيلِ متفاوتةٌ، ورحمةُ اللهِ تسَعُ الجميعَ

معنى: (أو)، ودلالتها في ﴿أَوِ ٱنقُصۡ﴾ و﴿أَوۡ زِدۡ﴾:

(أو) في قولِهِ ﷻ: ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾، وقولِه: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ للتَّخييرِ، فيكونُ النَّبيُّ ﷺ مخيَّرًا بينَ ثلاثةِ أشياءَ: بينَ قيامِ نصفِ اللَّيلِ تامًّا، وبينَ قيامِ النّاقصِ منهُ، وبينَ قيامِ الزّائدِ عليه[3]، والتَّخييرُ المستفادُ مِنَ الحرفِ: (أو) منظورٌ فيهِ إلى تفاوتِ اللَّيالي بالطّولِ والقِصَرِ؛ لأنَّ لذلكَ ارتباطًا بسَعَةِ النَّهارِ للعملِ، ولأخذِ الحظِّ الفائتِ مِنَ النَّومِ، وذلكَ توسيعٌ على النَّبيِّ ﷺ؛ لرفعِ حرجِ تحديدِهِ لزمنِ القيامِ، فسُلِكَ بهِ مَسْلَكُ التَّقريبِ[4].

التَّوسعةُ على النَّبيِّ ﷺ في قيامِ اللَّيلِ

معنى (مِنْ) ودلالتها في ﴿مِنۡهُ﴾:

(مِنْ) في قولِهِ ﷻ: ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾؛ للتَّعديةِ، فالنِّصفُ هو متعلَّقُ النَّقصِ، أي: أنقص القيام مِن النّصف المقارن له في

النِّصفُ متعلَّقُ النَّقصِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 259.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 7، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 259.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 555.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 259.

الصُّورة الأولى[1]، وفيها أيضًا معنى ابتداءِ الغايةِ، أي: أنقص القيام ابتداءً مِن هذا النِّصْفِ.

نكتة التَّقديمِ في ﴿مِنْهُ﴾:

قُدِّمَ قولُه: ﴿مِنْهُ﴾ على قولِه: ﴿قَلِيلًا﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾؛ للعنايةِ بالمقدَّمِ، ووجهُ ذلكَ التَّنْبيهُ على أنَّ النَّقْصَ مِن القيامِ في اللَّيلِ لا يعودُ عليه بنوعِ تقليلٍ مِن عظيمِ أهمّيَّتِه وشرَفِه، وإنَّما شرفُه وجلالُه ثابتٌ لهُ مع النَّقْصِ منه أيضًا، وللتَّشويقِ للمؤخَّرِ، ولرعايةِ تلاؤمِ الفواصلِ.

قيام اللَّيلِ عبادةٌ شريفةٌ نفيسةٌ

سِرُّ التَّنكيرِ لـ ﴿قَلِيلًا﴾:

تنكيرُ ﴿قَلِيلًا﴾ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾؛ للتَّقليلِ والتَّحقيرِ، والمعنى: نقصًا قليلًا، أو مقدارًا قليلًا؛ بحيثُ لا ينحطُّ إلى نصفِ النِّصفِ[2]، ففائدةُ ذكرِ المفعولِ ﴿قَلِيلًا﴾ تحديدُ كميَّةِ النُّقصانِ؛ لأنَّ مَن يسمَعُ الإنقاصَ من النِّصفِ قد يذهبُ ذهنُهُ إلا أنَّه نقصٌ يحتملُ القلَّةَ والكثرة، فأبانَ عن كميَّةِ النقصان بالقلَّةِ، ونكَّرها حتى تكونَ قليلةً للغاية.

دلالةُ الطِّباقِ بينَ ﴿ٱنقُصْ مِنْهُ﴾، و﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾:

عبَّرَ النظمُ الكريم بأسلوبِ الطِّباقِ بينَ (النُّقصان والزِّيادة ومنهُ وعليهِ)، في قولِهِ تعالى: ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾، والغرضُ من الطِّباقِ تحديدُ أطرافِ ما يُنقصُ من نصفِ اللَّيل، أوْ يُزادُ عليه، وكأنَّ المأمورَ به هو النّصف في أقلِّ الاحتمالات، ولكن قد يُزادُ على النِّصف، أوْ يُنقَصُ من النِّصف حسبَ الطّاقة والاحتمالِ.

التخييرُ بينَ الزِّيادة والنُّقصان منَّةٌ عظيمةٌ على النبيِّ العَدنان

معنى (على) ودلالتُها في ﴿عَلَيْهِ﴾:

الحرفُ (على) في قولِهِ تعالى: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾؛ لتقويةِ التَّعديةِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 417.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 50.

إلى المفعولِ الأوّل، والتقديرُ: (أوْ زِدْ على النِّصف قليلًا)؛ إذ الأصل: أوْ زِدِ النصفَ قليلًا؛ لأنَّ الفعل (زاد) يتعدَّى إلى المفعولين بنفسِهِ، فيكون في التحوُّلِ إلى التعديةِ بالحرف تقويةٌ للتعديةِ إليه، وما فيها مِنْ معنى الاستعلاءِ المجازيِّ يشيرُ إلى تمكُّنِ الزّيادةِ مِنَ النِّصفِ، وتعلُّقِها بهِ تعلُّقًا قويًّا.

سرُّ عدمِ تقييدِ الزّيادةِ بالقليلِ:

التَّرغيبُ في الزّيادةِ على النِّصفِ

لم يُقيَّدْ قولُهُ تعالى: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ بالقلَّةِ، كما قُيِّدَ النَّقصُ بها؛ لتكونَ الزّيادةُ على النِّصفِ متَّسعةً؛ ترغيبًا في أنْ تكونَ مدَّةُ القيامِ أكثرَ مِنْ نصفِ اللَّيلِ[1]؛ إبلاغًا في التَّنبيهِ على كمالِ شرفِ تلك العبادةِ العَليَّةِ.

دلالة العطفِ في: ﴿وَرَتِّلِ﴾:

التَّرتيلُ في الصَّلاةِ يُعينُ على التَّدبُّرِ والخشوعِ

لمّا أمرَ ﷺ نبيَّهُ بصلاةِ اللَّيلِ؛ أمرَهُ بترتيلِ القرآنِ فيها، فقالَ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾؛ حتَّى يتمكَّنَ الخاطرُ مِنَ التَّأمُّلِ في حقائقِ تلكَ الآياتِ ودقائقِها؛ فعندَ الوصولِ إلى ذكرِ اللهِ يستشعرُ عظمتَهُ وجلالتَهُ، وعندَ الوصولِ إلى الوعدِ والوعيدِ يحصلُ الرَّجاءُ والخوفُ، وحينئذٍ يستنيرُ القلبُ بنورِ معرفةِ اللهِ، والإسراعُ في القراءةِ يدلُّ على عدمِ الوقوفِ على المعاني؛ لأنَّ النَّفسَ تبتهجُ بذكرِ الأمورِ الإلهيَّةِ الرّوحانيَّةِ، ومَنِ ابتهجَ بشيءٍ؛ أحبَّ ذكرَهُ، ومَنْ أحبَّ شيئًا؛ لم يمرَّ عليهِ بسرعةٍ[2]، وهذا هو الأعلى في نورِ قولِه تعالى في اللِّحاقِ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾؛ فإنَّه يَخِفُّ عليك بتلاوتِه في الصَّلاةِ عمومًا، وفي الصَّلاةِ في اللَّيلِ خصوصًا، ويجوزُ أنْ يكونَ الأمرُ بالتَّرتيلِ أمرًا مستقلًّا بكيفيَّةِ قراءةِ القرآنِ، جرى ذكرُهُ بمناسبةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 259.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 683، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 8.

الأمرِ بقيامِ اللَّيلِ، والقراءةُ في الصَّلاةِ تدخلُ في ذلكَ[1]، وهذا وجهٌ مرجوحٌ، واللّافتُ للانتباه أنَّ العطفَ أفادَ أمرًا زائدًا على القيام، وهو الترتيلُ، فيكونُ ذكرهُ بعدَ قولِهِ: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ مُتوافقًا معه؛ ولذا قدَّمَ الإنقاص، وأخَّر الزّيادة؛ حتى يتحقَّقَ التوافقُ بين زيادةِ الترتيل على القيامِ وزيادةِ القيامِ على النّصف.

دلالةُ الأمرِ في ﴿وَرَتِّلِ﴾:

ترتيلُ القرآنِ واجبٌ يُقْبَلُ عليه بالكُلِّيَّةِ

الأمرُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾؛ للوجوبِ، فيفيدُ الكلامُ أنَّ القراءةَ على وجهِ التَّمهُّلِ مع مراعاةِ التَّجويدِ فرضٌ[2]، وإنَّما أظهَرَ القرآنُ معنى الوجوبِ في صيغة الأمر؛ دلالةً على كونه مطلوبًا الإقبالُ عليه بغايةِ الرَّغْبةِ؛ لعِظَم أهمّيَّته.

علَّةُ التَّعبيرِ بالتَّرتيلِ دون غيره:

وجوبُ التَّأنّي في قراءةِ القرآنِ

عُبِّرَ بالتَّرتيلِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾؛ لدلالتِهِ على التَّمهُّلِ مع تدبُّرِ المعاني؛ لأنَّه مأخوذٌ مِن قولِهم: ثغْرٌ رتْلٌ ورتِلٌ؛ إذا كان مُفلَّجًا[3]، وذلكَ لا يتمُّ بأنْ يَعْجَلَ في القرآنِ، وإنَّما يتمُّ بأنْ يُبيِّنَ جميعَ الحروفِ، ويوفّيَها حقَّها مِنَ الإشباعِ[4]؛ حتَّى تخرجَ مِنَ الفمِ واضحةً، وفائدةُ هذا: أنْ يرسخَ حفظُهُ، ويتلقّاهُ السّامعونَ، فيعلقَ بحوافظِهم، ويتدبَّرَ قارئُهُ وسامعُهُ معانيَهُ؛ كي لا يسبقَ لفظُ اللِّسانِ عملَ الفهمِ[5]، وهذا هو الألصقُ بكونه في الصَّلاة، وبكونِه مع الصَّلاةِ تهيئةً لممارسةِ الرِّسالةِ والدَّعوة إلى اللّه بالنَّهارِ، وبكونِ القرآنِ قولًا ثقيلًا، كما يُقرِّرُه لحاقُ هذهِ الآيةِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 260.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي:
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 37، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 418.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 683.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 260.

علَّة التَّعبيرِ بالقرآنِ دونَ الكتابِ:

الموافقُ للتَّرتيل ذِكْر القرآنِ عُنوانًا للتنزيل

عُبِّرَ بالقرآنِ دونَ الكتابِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾؛ لأنَّهُ أنْسَبُ بالتَّرْتيلِ الَّذي هو نوعٌ من أنواعِ القراءةِ، والقرآنُ في الأصلِ مصدرٌ مرادفٌ للقراءةِ، ثمَّ نُقِلَ من هذا المعنى المصدريِّ، وجُعِلَ اسمَ علَمٍ للكلامِ المُعجِزِ المُنزَلِ على النَّبيِّ ﷺ، مِنْ بابِ إطلاقِ المصدرِ على مفعولِهِ، ولأنَّ بالتَّرْتيلِ تنكشفُ أسرارُه وخفيَّاتُه، والألصقُ بذلك ذكرُ ما يدلُّ على الجَمْعِ والإحاطةِ الَّذي هو القرآنُ، لا الكتابُ، فبالتَّرتيلِ تنهالُ على المُرتِّلِ المعاني والأسرارُ، والترتيلُ يتعلَّقُ بالمقروءِ في الأصلِ، فكأنَّه قالَ له: اقرأهُ مُرتَّلًا.

دلالةُ التعريفِ في ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾:

تعريفُ القرآنِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾؛ للَمْحِ الأصلِ قبلَ العلميَّةِ؛ لأنَّ القرآنَ منقولٌ مِنَ المصدرِ المرادفِ للقراءةِ - كما تقدَّمَ - وتفيدُ (أل) فيه الجنسَ الدالَّ على الكمالِ، وكأنَّه الكتابُ الَّذي يستحقُّ أنْ يُقرأ على وجهِ الكمالِ والكثرةِ، ولا يخفى أنَّه أكثرُ كتابٍ يُقرأ، فكان اسمُهُ مُنبئًا عن تلك الكثرةِ وذلك الكمالِ المتحقِّقِ في قراءتِهِ والتعلُّقِ بنظْمِهِ.

بلاغةُ ذِكْرِ المصدرِ ﴿تَرْتِيلًا﴾:

التَّرتيلُ حَتْمٌ على القارئ؛ لعظيمِ شرفِه

جيءَ بالمفعولِ المطلقِ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾؛ لتوكيدِ الأمرِ بالتَّرتيلِ، وبيانِ أنَّهُ ممّا لا بدَّ منهُ للقارئِ[1]، ولَمَّا أعلَمَ سبحانه بالتَّرتيلِ؛ أعلمَ بشرفِه بالتَّوكيدِ بالمصدرِ[2]، وأفادَ المصدرُ تحقيقَ الفعلِ تَحقيقًا دالًّا على أنَّ الترتيلَ أمرٌ مقصودٌ لذاتِهِ، وليس الترتيلُ لمجرَّدِ القراءةِ، فهو نفيٌ لدلالةِ المَجازِ في فعلِ الأمْرِ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 637، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 556.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 206.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المُزَّمِّلُ والمُدَّثِّرُ:

هيئةُ النَّبيِّ عندَ الـخـطـابِ هي التَّلَفُّفُ

المُزَّمِّلُ: اسمُ فاعلٍ مِن: تزمَّلَ؛ إذا تلفَّفَ بثوبِهِ، كالَّذي يُقاسي البردَ، أو كمُريدِ النَّومِ، وهو مِثلُ المُدَّثِّرِ في مآلِ المعنى، وإنْ كانَ بينَهما اختلافٌ في أصلِ الاشتقاقِ، فالتَّزمُّلُ مشتقٌّ مِنْ معنى التَّلفُّفِ، والتَّدثُّرُ مشتقٌّ مِنْ معنى اتِّخاذِ الدِّثارِ للتَّدفُّؤِ[1]، وقد عُبِّرَ بالمُزَّمِّلِ هنا؛ لدلالتِهِ على معنى التَّلفُّفِ، دونَ قصدِ دفعِ البردِ، كما أنَّ التزمُّلَ يكونُ بالثوبِ الَّذي يلبَسُهُ، والتدثُّرَ يكونُ بالدِّثارِ دونَ الثَّوبِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 256.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والستون،
سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 64 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-38-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 64 : المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-38-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6817852 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"